سَبُّكَ مَنْ بَلَّغَكَ السَّبَّا (١)

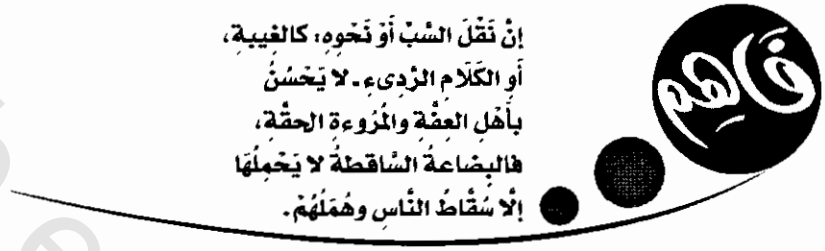

إنْ نَقْلَ السَّبِّ أَوْ نَحْوِهِ، كالغيبةِ، أَوِ الكَلَامِ الرَّدِيءِ ـ لا يَحْسُنُ بِأَهْلِ العِفَّةِ والمُرُوءةِ الحقَّةِ، فالبِضاعةُ السَّاقطةُ لا يَحْمِلُهَا إلَّا سُقَّاطُ النَّاسِ وهَمَلُهُمْ.

مَنْ مِنَّا يُحِبُّ أَنْ يُنْقَلَ إليهِ ما يَحْزُنُهُ أَوْ يَسُوءُهُ؟!.

قَـدْ هَـيَّـئُـوكَ لأَمْـرٍ لَـوْ فَطِنْتَ لَهُ   فَارْبَأْ بنَفْسِكَ(٢) أَنْ ترعى مَـعَ الهَمَلِ

ولْنَنْظُرْ إلى جِيلِ الصَّحابةِ، نجدهُمْ يتسابَقُون على ماذا؟!.

إنَّهُمْ كانوا يتسابقون على حَمْلِ البِشَارةِ لغَيْرِهِمْ، فَبشَّرَ اللهُ وُجُوهَ حامِلِيها بكُلِّ خَيْرٍ!.

فإذا رُزِقَ أَخُوكَ نجاحًا أَوْ مَوْلُودًا، أَوْ قَدِمَ لَهُ غائبٌ فَبَشِّرْهُ، تُلْقَ مَيْمونًا مُباركًا، ووَجْهُكَ لا يَأْتِي إلَّا بالخَيْرِ.

وإذا كان لك أَخٌ عَزِيزٌ تَرَى، في أَهْلِهِ أَوْ أبنائِهِ ما يَدْعُوك لنُصْحِهِ ـ فتجنَّبِ التَّصريحَ؛ فَمِنَ التَّصريحِ ما يَجْرَحُ، ولكنْ لِتَقُلْ لَهُ بَيْنَكَ وبَيْنَهُ في رِفْقٍ: تعاهدْ أَهْلَكَ وأبناءِك، وعوِّدْهُمُ الخيرَ؛ فإنَّ الخَيْرَ عادةٌ، وتخيَّرْ لَهُمُ الأصحابَ ذوي السُّمْعةِ الجيِّدةِ في المُجتمعِ، وتفقَّدْ أصحابَهُمْ، فإنْ كانوا على خَيْرٍ وصَلَاحٍ فاحْمَدِ اللهَ، وإنْ كانوا على غيرِ ذلك، فاصْرِفْهُمْ عَنْهُمْ، وفَّقَكَ اللهُ لكُلِّ خَيْرٍ.

---

(١) «مجمع الأمثال» (١/ ٣٧٢).

(٢) فارْبَأْ بنفسك: ارتفع بها، وبابُهُ قَطَعَ.

obeikandl.com

ومَتَى رأيتَ ما يَرِيبُ فانْتَبِهْ؛ فإنَّ للنَّقْلِ شُرُوطًا لا يَسْلَمُ حامِلُهُ مِنَ المَعَرَّةِ[1] إلَّا بها.

وإذا سَمِعْتَ فَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ كثيرًا مِنَ النَّاسِ لا يَرْقُبُونَ اللهَ في إخوانِهِمْ.

قال ابنُ حَزْمٍ - رحمه الله -: «مَنْ سَمِعَ قائلًا يَقُولُ في امْرَأَةِ صَدِيقِه قَوْلَ سَوْءٍ، فلا يُخْبِرْهُ بذلك أَصْلًا، لا سَيَّما إنْ كانَ القائلُ عَيَّابَةً وقَّاعًا في النَّاسِ، سَلِيطَ اللِّسانِ، أَو دافعَ مَغْرَمٍ عَنْ نَفْسِهِ، يُرِيدُ أنْ يَكْثُرَ أَمْثالُهُ في النَّاسِ، وهذا كَثِيرٌ مَوْجُودٌ»[2].

قلتُ: هذا واقعٌ لا محالةَ، فالثِّقَةُ إنَّما يأْتِي البُيُوتَ مِنْ أَبْوابِها، بَلْ يُعالِجُ الأُمُورَ في مَحَلِّها، ويَنْصَحُ لأَهْلِها، ويَسْتُرُ عليهم، ولا يَرْفَعُ أَمْرَهُما إلَّا مَتَى اسْتَعْصَى عليه، ورَأَى أنَّ إصلاحَهُ لا يُجْدِي مَعَهُ إلَّا عَصا رَبِّ المَنْزِلِ، وآخِرُ الدَّواءِ الكَيُّ، وأَيْنَ ذلك الرَّجُلُ الثِّقَةُ؟!.

ولا أَنْصَحُ بحَمْلِ رسالةٍ لا تَحْمِلُ البِشارةَ والخَيْرَ لأَهْلِها، ومَنْ فَعَلَ ذلك فلا يَلُومَنَّ إلَّا نَفْسَهُ.

وأنا أُحَدِّثُكَ بقِصَّةٍ وَقَعَتْ لي: كان لي أَخٌ طَلَّقَ زَوْجَهُ، وهي ابْنَةُ عَمِّنا، لا لعَيْبٍ فيها إلَّا لعَدَمِ وُجُودِ الأُلْفَةِ، فَقَدْ كانتْ ذاتَ دِيْنٍ وخُلُقٍ، فحمَّلني أخي رسالةَ طلاقِها، فحملتُها على مَضَضٍ؛ لعِلْمي بالحالِ، ولأنَّ الاستمرارَ على تِلْكَ الحالِ مُحالٌ.

إذا لَمْ تَكُنْ إلَّا الأَسِنَّةُ مَرْكَبًا ... فما حِيلَةُ المُضْطَرِّ إلَّا رُكُوبُها

فلمَّا أَوْصَلْتُ الرِّسالةَ لعمِّي، تغيَّرَ عليَّ على أَسْوَإِ ما يَكُونُ، وأَنْكَرْتُ وُدَّهُ ولُطْفَهُ، وهُوَ مَنْ ربَّاني صَغِيرًا، وإلى الآنَ وأنا أُعاني ما أُعاني.

وأنا أُحَذِّرُ نَفْسي وإيَّاكَ مِنَ الدُّخُولِ في أَمْرٍ حتَّى نتبيَّنَ عاقبتَهُ، ومَنِ استطاع ألَّا يَدْخُلَ بَيْنَ أَحِبَّائِهِ ومَعَارِفِهِ فَلْيَفْعَلْ؛ فإنَّ السَّعِيدَ مَنِ اتَّعظَ بغَيْرِه.

(١) المَعَرَّة - بزنَةِ المَجَرَّةِ -: الإثمُ.
(٢) «الأخلاق والسِّير» (ص١٢٥).

obeikandl.com

قال السَّمَوْءَلُ بْنُ عادياءَ:

إذا المَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللُّؤْمِ عِرْضُ ... فكُلُّ رِدَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ
وإنْ هُوَ لَمْ يَحْمِلْ على النَّفْسِ ضَيْمَها ... فلَيْسَ إلى حُسْنِ الثَّناءِ سَبِيلُ[٢].[٣]

وَمِنْ هذا القَبِيلِ إعادةُ الكَلامِ المُذَكِّرِ بالأَسَى والحُزْنِ؛ فلا يَحْسُنُ إعادتُهُ على مَسْمَعِ مَنْ يتأذَّى بسَماعِهِ.

وانْظُرْ إلى هذا الجَوابِ مِنْ وَحْشيِّ بْنِ حَرْبٍ قاتِلِ حَمْزَةَ - رضي الله عنهما - بَعْدَ ما أَسْلَمَ، وقَدِمَ على رَسُولِ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - ، فسأله رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - قائلًا: «**أنتَ وَحْشيٌّ؟**». قال: نَعَمْ. قال: «**أَنْتَ قَتَلْتَ حَمْزَةَ؟**». قال: قَدْ كانَ مِنَ الأَمْرِ ما بَلَغَكَ[٣].

فَلَمْ يُعِدْ وَحْشيٌّ ذِكْرَ القَتْلِ على مسامعِ رَسُولِ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - ، بَلْ قال ـ على وَجْهِ الإجمالِ ـ: قَدْ كانَ مِنَ الأَمْرِ ما بَلَغَكَ.

وبنَحْوِ هذا أجاب الأَنْصَارُ، لَمَّا تكلَّمَ بَعْضُهُمْ في قِسْمةِ رَسُولِ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - غنائِمَ حُنَيْنٍ، فدعاهم رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - ، فقال: «**ما الَّذي بَلَغَني عَنْكُمْ؟**»

وكانوا لا يَكْذِبُونَ، فقالُوا: هُوَ الَّذي بَلَغَكَ[٤].

فالكَلَامُ المُؤْذِي الَّذي يُذَكِّرُ بالمَآسي والآلامِ لا يُعَادُ ولا يُكَرَّرُ، أَمَّا الكلامُ الطَّيِّبُ فَيُعَادُ ويُكَرَّرُ؛ إذِ السَّامعُ يُحِبُّ ذلك، ويَرْغَبُ فيهِ، وَمِنْ ثَمَّ قال بَعْضُ المُفَسِّرين لَمَّا طُرِحَ سُؤَالٌ في قَوْلِ زَكَرِيَّا - عليه السلام - : ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ (مريم: ٥)، فلَمَّا بُشِّرَ قال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ (مريم: ٨).

---

(١) يَقُولُ: مَنْ لم يُصَبِّرِ النَّفْسَ على مكارهها، فلا سبيلَ إلى اكتسابِ حُسْنِ الثَّناءِ، وليس معنى الضَّيْمِ ضَيْمَ الغَيْرِ لَهُمْ؛ لأنَّهُمْ يأْنَفُون مِنْ ذلك، ويَعُدُّونه تَذَلُّلًا.

(٢) «نهاية الأرب» (٣/ ٨٥).

(٣) رواه البخاريُّ (٤٠٧٢).

(٤) رواه البخاريُّ (٣٧٧٨).

فكيف سأل وقَدْ سألَ وهُوَ كبيرٌ بدلالةِ قَوْلِه: ﴿إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ (مريم: ٤).

ولَمَّا بُشِّرَ قال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ (مريم: ٨)؟!.

كَيْفَ سَأَلَ؟!، ولِمَ تعجَّبَ مِنَ الإجابةِ لَمَّا أُجيبت؟!.

أجاب بَعْضُ المُفسِّرين بأَجْوِبَةٍ، منها: أَنَّهُ سَأَلَ كَيْ يُعادَ عليه التَّبشيرُ بالغُلامِ، وهذا مِمَّ يُسْعِدُ ويَسُرُّ. واللهُ أَعْلَمُ[1].

ومن درر عبد الله بن طاهر:

إنَّ مَنْ بَلَّغَ شَتْماً عَنْ أخٍ ... فَهُوَ الشَّاتِمُ لا مَنْ شَتَمَكْ
ذَاكَ شيءٌ لَمْ يُوَاجِهْكَ بِهِ ... إنَّما اللُّؤْمُ عَلَى مَنْ أعْلَمَكْ
كَيْفَ لَمْ يَنْصُرْكَ إنْ كَانَ أخًا ... ذَا وَفَاءٍ عِنْدَ مَنْ قَدْ ظَلَمَكْ
إنَّما رَامَ بِإِبْلاَغِ الَّذي ... نَمَّ فيه فَاعْلَمَنْ أنْ يُرْغِمَكْ
فَأَهِنْهُ إنَّهُ مِنْ لُؤْمِهِ ... إنْ تُسْمْهُ بِهَوانٍ أكْرَمَكْ

فُصُوصٌ:

قال ابنُ حَزمٍ ـ رحمه الله ـ:

«لا تَنْقُلْ إلى صَدِيقِكَ ما يُؤْلِمُ نَفْسَهُ، ولا يَنْتَفِعُ بمَعْرِفَتِهِ؛ فهذا فِعْلُ الأَرَاذِلِ». «الأخلاق والسِّير» (ص١٢٥).

---

(١) انظر «فقه الأخلاق» (ص٢٤٠ ـ ٢٤١).

اجْنِ العَسَلَ، ولا تكْسِرِ الخَلِيَّةَ

إنَّ الغَضْبَانَ تَشْتَعِلُ النَّارُ في أَحْشَائِهِ،
ومَتَى خلصتْ إلى قَلْبِه،
رُفِعَ عَنْهُ القَلَمُ، وسَقَطَ عَنْهُ التَّكليفُ،
ومَتَى كانت النَّارُ تُطْفَأُ بالنَّارِ؟،
إنَّما تُطْفَأُ بالماءِ الَّذي هُوَ ضِدُّها.

كَثيرٌ مِنَ النَّاسِ لا يُحْسِنُوا التَّعامُلَ مَعَ الغَضْبَانِ، بَلْ إنَّ بَعْضَهُمْ مَتَى رَأَى اشتعالَ الغَضَبِ في أخِيهِ، سارع إلى صَبِّ الزَيْتِ في النَّارِ لِدَفْعِ مغرمٍ عَنْ نَفْسِهِ وبَعْضُهُمْ يَعْتَدُّ بكُلِّ صَغيرةٍ وكبيرةٍ مِنْ قَوْلِهِ، وهذا كثيرٌ مَوْجُودٌ.

وبَعْضُهُمْ يَرُدُّ عليهِ الصَّاعَ بصاعَيْنِ، والكَيْلَ بكَيْلَيْنِ، وما هكذا تُوْرَدُ الإبِلُ!.

قال ابنُ الجَوْزِيِّ ـ رحمه الله ـ: «مَتَى رَأَيْتَ صاحِبَكَ قَدْ غَضِبَ، وأَخَذَ يتكلَّمُ بما لا يَصْلُحُ ـ فلا يَنْبَغي أنْ تَعْقِدَ على ما يقولُهُ خِنصرًا[١]، ولا أَنْ تؤاخِذُ بِه؛ فإنَّ حالَهُ حالُ السَّكْرانِ، لا يَدْرِي ما يَجْري، بَلِ اصْبِرْ لفَوْرتِهِ، ولا تُعوِّلْ عليها[٢]؛ فإنَّ الشَّيطانَ قَدْ غَلَبَهُ، والطَّبْعَ قَدْ هَاجَ، والعَقْلَ قَدِ اسْتَتَرَ، ومَتَى أَخَذْتَ في نَفْسِكَ عليه، أَوْ أَجَبْتَهُ بمُقْتَضَى فِعْلِهِ ـ كُنْتَ كعاقلٍ وَاجَهَ مَجْنُونًا، أو كَمُفيقٍ عاتَبَ مُغْمَىً عليه، فالذَّنْبُ لَكَ، بَلِ انْظُرْ إليه بعَيْنِ الرَّحْمَةِ، وتَلَمَّحْ تَصْريفَ القَدرَ لَهُ، وتَفَرَّجْ في لَعِبِ الطَّبْعِ بِهِ، واعْلَمْ أنَّهُ إذا انْتَبَهَ نَدِمَ على ما جَرَى، وعَرَفَ لَكَ فَضْلَ الصَّبْرِ.

(١) الخِنْصَر ـ بكَسْرِ الخاءِ والصَّادِ وتُفْتَح ـ: الإصْبَع الصُّغْرى أَوِ الوُسْطَى.

(٢) يَحْسُنُ أَلَّا تُذَكِّرَ الغَضْبَانَ باللهِ حالَ هَيَجانِ غَضَبُهُ؛ لئلَّا يتكلَّمَ بما لا يُحْمَدُ عُقْباهُ. قال النَّوويُّ ـ رحمه الله ـ في «الأذكار» (ص٨٥١): «رَوَى النحاسُ عَنْ أبي بَكْرٍ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى ـ وكان أَحَدَ الفُقَهاءِ الأُدَبَاءِ ـ أنَّهُ قال: يُكْرَهُ أَنْ يُقَالَ لأَحَدٍ عِنْدَ الغَضَبِ: اذْكُرِ اللهَ؛ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَحْمِلَهُ الغَضَبُ على الكُفْرِ».

obeikandl.com

وأَقَلُّ الأقسام أنْ تُسَلِّمَهُ فيما يَفْعَلُ في غَضَبِهِ إلى ما يَسْتريحُ بِهِ، وهذِهِ الحالةُ يَنْبغي أنْ يتلَّمَحَها الوَلَدُ عِنْدَ غَضَبِ الوالدِ، والزَّوْجَةُ عِنْدَ غَضَبِ الزَّوْجِ، فَتَتْرُكَهُ يَشْتَفي بما يَقُولُ، ولا تُعَوِّلْ على ذلك، فسيعودُ نادمًا مُعْتَذِرًا، ومَتَى قُوبِلَ على حالتِهِ ومقالتِهِ، صارتِ العَدَاوةُ مُتمكِّنةً، وجازى في الإفاقِ على ما فَعَلَ في حَقِّهِ وَقْتَ السُّكْرِ.

وأكثرُ النَّاسِ على غَيْرِ هذِهِ الطَّريقِ، ومَتَى رَأَوْا غَضْبانًا، قَابَلُوهُ بما يَقُولُ ويَعْمَلُ، وهذا على غَيرِ مقتضى الحِكْمةِ، بَلِ الحِكْمَةُ ما ذَكَرْتُهُ، وما يَعْقِلُها إلَّا العالِمُونَ»[1].

قال أُستاذُنا عَبْدُ الكريمِ العمادُ -حفظه الله- :

دَعِ الغَضْبَانَ يُخْرِجْ ما لَدَيْهِ ... وأَحْسَنْتَ الصَّنيعَ إذا سَكَتَّا
وإنْ جادَلْتَهُ والنَّارُ فِيهِ ... فأنتَ تَصُبُّ في النِّيرانِ زَيْتَا

مَرْجَانٌ:

قال الأَحْنَفُ بنُ قَيسٍ - رحمه الله -:

«مِنْ حَقِّ الصَّديقِ أَنْ يُحْتَمَلَ لَهُ ظُلْمُ الغَضَبِ، وظُلْمُ الدَّالَّةِ[2]، وَظُلْمُ الهَفْوَةِ». «الصَّداقة والصَّديق» (ص٥٤).

---

(١) «صَيْد الخاطِر» (ص٢٢١).
(٢) الدَّالَّة: ما تَدِلّ بِهِ على حَميمِكَ.

تجمّل

إنَّ الإلحاحَ في الكَلامِ أو السُّؤالِ مُنافٍ للسَّمْتِ، مُنافٍ للوَقارِ، مُنافٍ للسَّكينةِ والمُروءةِ الحَقَّةِ.

مَنْ حدَّثك بأَدَبٍ، وناقَشَكَ بوَقَارٍ، واسْتَخْرَجَ عِلْمَكَ برِفْقٍ ـ تَجِدُ نَفْسَكَ في انشراحِ لحديثِهِ، بَلْ وتَجِدُ عِلْمَكَ يَنْسابُ إليه كما يَنْسَابُ السَّيْلُ إلى الحدورةِ، وإنَّكَ لَيَأْخُذُكَ الدَّهَشُ، كيف استطاع أنْ يَفْعَلَ هذا مَعَكَ؟!.

في حِينِ أَنَّكَ لتعْجَبُ لأُناسٍ يَسُدُّونَ النَّفْسَ، ويُشَتِّتُونَ الفِكْرَ، حتَّى إنَّكَ لتخالُ نَفْسَكَ أمَامَهُمْ لَمْ تُؤْتَ عِلْمًا بَعْدُ!، فَهَلْ ثَمَّةَ فَرْقٌ؟!.

ما مِنْ شَكٍّ أَنَّهُ الإلحاحُ الَّذي يَحْمِلُ السَّمْحَ على الشُّحِّ في كُلِّ شَيْءٍ، يُصَوِّرُ ما نَراهُ قَوْلُ أبي نُوَاسٍ:

تَأَنَّ مواعيدَ الكرامِ؛ فَرُبَّما ... حَمَلْتَ مِنَ الإلْحاحِ سَمْحًا على بُخْلِ[(١)]

فَحَرِيٌّ بالمُتعلِّمِ أَنْ يَصُونَ نَفْسَهُ عَنِ الإلحاحِ؛ فإنَّهُ رُبَّما أَحْدَثَ لَهُ رِقَّةَ شَأْنٍ وسُخْفَ مَنْزِلَةٍ.

وأَقْبَحُ الإلحاحِ الإلحاحُ في الطَّلَبِ، فإذا طَلَبْتَ إلى أَخِيكَ حاجةً، فَتِلْكَ الحاجة قَدْ فُرِغَ مِنها لك أو لغَيْرِكَ، فإنْ كانتْ مِنْ نَصِيبِكَ، فاطْلُبْها بكلمةٍ واحدةٍ تُزَيِّنُك؛ فإنَّ ما لا يَكُونُ مِنْ نَصِيبِكَ لا يَكونُ بإلحاحٍ يَشِينُكَ، فإذا عَلِمْتَ ذلك، فمَالَكَ وللإلحاحِ؟!.

(١) «دِيوان أبي نَواسٍ» (ص٥٩٩).

(٢) «العِقْدُ الفَرِيد» (١/ ٢٥٣).

إذا كُنْتَ طالبَ حاجةٍ فَتَجمَّلِ فيها بأَحْسَنِ ماَ طَلَبْتَ وأَجْمَلِ
إنَّ الكَرِيمَ أخا المُروءةِ والنُّهَى مَنْ لَيْسَ في حاجاتِهِ بِمُثَقِّلِ[٢]

سَبَائِكُ ذَهَبِيَّةٌ :

قال سُفيَانُ الثَّوريُّ ـ رحمه الله ـ :

«الإلحاحُ لا يَصْلُحُ ولا يَجْمُلُ إلَّا على اللهِ ـ عَزَّ وجلَّ ـ .»

«الآداب الشَّرعيَّة» (٢/ ٢٨٦).

obeikandl.com

رِيَاضُ المُتحابِّين

إنَّ العتَابَ إذا وُضِعَ مَوْضِعَهُ، واسْتُغِلَّتْ فُرْصَتُهُ. كان رياضَ المُتحابِّينَ، ومَتى عَرِيَ مِنْ ذلك، كانتْ ثَمَرَتُهُ إلى العَدَاوةِ.

للعِتَابِ رجالٌ ومقامٌ وأَحْوالٌ، فلا يَصْلُحُ أَنْ تُعاتِبَ مَلُولًا ولا مُتَلوِّنًا؛ فالمَلُولُ لا يَسْرِي وُدُّكَ في نَفْسِهِ سَرَيانَهُ، والمُتلوِّنُ لا يُرْجَى وُدُّهُ، ولا يُوثَقُ بعَهْدِهِ؛ لأنَّ مودَّتَهُ مُتَلَوِّنَةٌ كتَلَوُّنِ الحِرْباءِ.

إذا أَنْتَ عاتَبْتَ المَلُولَ[1]، فإنَّما ... تَخُطُّ على صُحُفٍ مِنَ المَاءِ أَحْرُفا
وَهَبْهُ[2] ارْعَوَى[3] بَعْدَ العِتَابِ، أَلَمْ تكُنْ ... مَوَدَّتُهُ طَبْعًا، فصارتْ تَكَلُّفا[4]

وغالبُ النَّاسِ مِنْ هذا الصِّنْفِ، وهؤلاءِ الَّذين «مُعاتَبَتُهُمْ تَبْعَثُ التجنِّي[5]، والتَّجَنِّي يَبْعَثُ المُخاصمةَ، والمُخاصمةُ تَبْعَثُ العداوةَ، ولا خَيْرَ في شَيْءٍ ثَمَرَتُهُ العَدَاوةُ».

فَدَعِ العِتَابَ، فَرُبَّ شر ... رٍ هاج أَوَّلُهُ العِتَابُ[6]

وهؤلاءِ هُمُ الَّذينَ شَكَى حالَهُمُ الإمامُ ابْنُ الجَوْزِيِّ — رَحِمَهُ اللهُ — بقوله:

«كان لنا أَصدقاءُ وإخوانٌ أعتَّد بهم، فرأيتُ مِنْهُمْ مِنَ الجَفَاءِ، وتَرْكِ شُرُوطِ الصَّداقةِ

---

(١) المَلُول: هُوَ السَّريعُ التَّغيُّرِ، والوَشِيكُ التَّنكُّرِ.

(٢) هَبْ: فعل أمر جامد بمعنى: ظُنَّ وافْتَرِضْ.

(٣) ارْعَوَى: رَجَعَ رُجُوعًا حَسَنًا.

(٤) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص١٧٥).

(٥) التَّجنِّي: التَّجرُّم، وهُوَ أَنْ يَدَّعيَ أَحَدُهما على الآخَرِ ذَنْبًا لَمْ يَفْعَلْهُ.

(٦) «المستطرف» (١/ ٢٨٢).

obeikandl.com

والأُخُوَّةِ ـ عجائبَ، فأخذتُ أعْتِبُ، ثُمَّ انْتَبَهْتُ لِنَفْسي، فَقُلْتُ: وما يَنْفَعُ العِتَابُ؟!؛ فإنَّهُمْ إنْ صَلَحُوا فَلِلْعِتَاب لا للصَّفاءِ، فهَمَمْتُ بمقاطَعَتِهِمْ، ثُمَّ تفكَّرْتُ، فرَأَيْتُ النَّاسَ بَيْنَ معارِفَ وأَصْدِقَاءَ في الظَّاهِرِ وإخوةٍ مُباطنين، فقُلْتُ: لا تَصْلُحُ مُقاطَعَتُهُمْ، وإنَّما يَنْبَغي أنْ تَنْقُلَهُمْ مِنْ دِيوانِ الأُخُوَّةِ إلى دِيوانِ الصَّداقةِ الظاهرةِ، فإنْ لَمْ يَصْلُحُوا لها، نَقَلْتَهُمْ إلى جُمْلَةِ المعارِفِ، وعامَلْتَهُمْ مُعاملةَ المعارفِ، وَمِنَ الغَلَطِ أنْ تُعَاتِبَهُمْ»(١).

ويَحْسُنُ العِتَابُ مَعَ الأَخِ الوافي الَّذي حَثَّكَ الشَّاعِرُ على التمسُّكِ به بقَوْلِهِ:

وإذا صفا لك مِنْ دَهْرِكَ واحِدٌ ... فاشْدُدْ عَلَيْهِ، وعِشْ بذاكَ الواحِدِ

فَعِتَابُ مَنْ هذا حالُهُ دَلِيلٌ على بَقَاءِ المودَّةِ.

أُعاتِبُ ذا المودَّةِ مِنْ صَدِيقٍ ... إذا ما سامني مِنْهُ اغْتِرابُ

إذا ذَهَبَ العِتَابُ فلا وِدَادٌ ... ويَبْقَى الوُدُّ ما بَقِيَ العِتَابُ

فالعِتَابُ في هذهِ الحالةِ حَسَنٌ جميلٌ، ومِمَّا يَزِيدُهُ جمالًا لُزُومُ الاعتدالِ، لا شَطَطَ(٢) فيه، ولا يَكُونُ إلَّا على زَلَّةٍ.

قال الماوري ـ رحمه الله ـ:

«إنَّ كَثْرةَ العِتَابِ سَبَبٌ للقَطيعةِ، واطِّراحُ جَميعِهِ دَليلٌ على قِلَّةِ الاكْتِراثِ بأَمْرِ الصَّديقِ، وقَدْ قِيلَ: عِلَّةُ المُعاداةِ قِلَّةُ المُبالاةِ. بَلْ تتوسَّطُ حالَتَا تَرْكِهِ وعِتَابِهِ، فَيُسَامِحُ بالمُتاركةِ، ويَسْتَصْلِحُ بالمُعاتبةِ، فإنَّ المُسامحة والاستصلاحَ إذا اجتمعا، لم يَلْبَثْ مَعَهُما نُفُورٌ، ولَمْ يَبْقَ مَعَهما وَجْدٌ(٣)، وقَدْ قال بَعْضُ الحُكَماءِ: لا تُكْثِرَنَّ مُعاتبةَ إخْوانِكَ؛ فَيَهُونَ عَلَيْهِمْ سُخْطُكَ»(٤).

(١) «صَيْد الخاطر» (ص ٢٩٤).
(٢) الشَّطَط ـ بفتحتين ـ: مُجاوزةُ القَدْرِ المَحْدُودِ.
(٣) الوَجْدُ: الغَضَبُ.
(٤) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص١٧٨).

ولله در البهاء زهير -عفا الله عنه- حيثُ قال:

تَعَالَوْا بِنَا نَطْوِيْ الحَدِيثَ الَّذيْ جَرَى ... ولا سمع الواشي بذاك ولا دَرَى
تعالوا بنا حتّى نَعُودَ إلى الرِّضَا ... وَحَتَّى كَأَنَّ العَهْدَ لَنْ يَتَغَيَّرَا
ولا تَذْكُرُوا ذَاكَ الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا ... عَلى أَنَّهُ مَا كَانَ ذَنْبٌ فَيُذْكَرَا
لَقَدْ طَالَ شَرْحُ القَالِ والْقِيْلِ بَيْنَنَا ... وَمَا طَالَ ذَاكَ الشَّرْحُ إلَّا لَيَقْصُرَا
مَتَّى يَجْمَعُ الرَّحْمَنُ شَمْلِيْ بِقُرْبِكُمْ ... وَيَصْفُو لَنا مِنْ عَيْشِنَا ما تَكَدَّرَا
سَأَذْكُرُ إحْسَانًا تَقَدَّمَ مِنْكُمُ ... وأتْرُكُ إكْرَامًا لَهُ ما تأخَّرَا
مِنَ الْيَوْمِ تَارِيْخُ المَحَبَّةِ بَيْنَنَا ... عَفَا الله عَنْ ذَاكَ الْعِتَابِ الذي جَرَى
فَكَمْ لَيْلَةٍ بِتْنَا وَكَمْ بَاتَ بَيْنَنَا ... مِنَ الأُنْسِ ما يُنْسَى به طَيِّبُ الكَرَى
أَحَادِيْثُ أَحْلَى فِي النُّفُوسِ مِنَ الْمُنَى ... وأَلْطَفُ مِنْ مَرِّ النَّسِيْمِ إذَا سَرَى

وقال -أيضًا-:

مِنَ الْيَومِ تَعَارَفْنَا ... ونَطْوِيْ مَا جَرَى مِنَّا
ولَا كَانَ ولَا صَارَ ... ولا قُلْتُمْ وَلَا قُلْنَا
وإنْ كَانَ ولَابُدَّ ... مِنَ العَتْبِ فَبِالحُسْنَى
فَقَدْ قِيْلَ لَنَا عَنْكُمْ ... كَمَا قِيْلَ لَكُمْ عَنَّا
كَفَى مَا كَانَ مِنْ هَجْرٍ ... وَقَدْ ذُقْتُمُ وَقَدْ ذُقْنَا
وَمَا أحْسَنَ أنْ نَرْ ... جِعَ لِلْوَصْلِ كَمَا كُنَّا

سَبَائِكُ ذَهَبِيَّةٌ:

قال ابنُ حَزمٍ -رحمه الله-:

«العِتَابُ للصَّديقِ كالسَّبْكِ للسَّبِيكَةِ، فإمَّا تَصْفُو، وإمَّا تَطِيرُ».

«الأخلاق والسِّير» (ص١١٥).

لا تُجادِلْ

إنْ الجَدَلَ يتولّدُ منهُ العنَادُ،
الّذي مِنْ ثَمَرتِه الحِقْدُ،
فَمَنْ أحبَّ أنْ تبقى القُلوبُ
سليمةً لبَعْضِها، فلْيَتْرُكِ الجَدَلَ.

الجَدَلُ: أَنْ يَجْمَعَكَ الحديثُ برَجُلٍ مُمارِيًا لَجُوجًا، يُثْبِتُ لك أَنَّ الشَّمْسَ غائبةٌ، وأنْتَ تَرَاها طالعةً، وقِسْ على ذلك، فالحديثُ مَعَ مَنْ هذا حالُهُ يُسمَّى جِدالًا، فإنْ جادَلْتَهُ بَقِيَ في قَلْبِهِ ما يَضُرُّكَ ولا ينفعه..

واللهُ - سُبحانَهُ وتعالى- يَقُولُ في هذا وأمْثالِه:

﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (الزخرف: ٥٨).

وقال رَسُولُ الله - ﷺ -: «أَبْغَضُ الرِّجالِ إلى اللهِ الألَدُّ الخَصِمُ»[١].

وقال - ﷺ -: «ما ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدىً أَتَاهُمْ، إلَّا أُوتُوا الجَدَلَ»[٢].

فلكي تَكْسِبَ قَلْبَهُ؛ لا تُجادِلْهُ، بَلِ اتْرُكْهُ وما هُوَ عَلَيْهِ، فَسَيَعُودُ إلَيْكَ، سوَاء طال الزَّمانُ أَوْ قَصُرَ.

وَمِنْ دُرَرِ العلَّامةِ ابْنِ حَزْمٍ - رحمه الله - قَوْلُهُ:

«إيَّاكَ ومُخَالفةَ الجليسِ، ومُعارضةَ أَهْلِ زمانِكَ فيما لا يَضُرُّكَ في دُنْياكَ، ولا في آخِرَتِكَ، وإنْ قَلَّ؛ فإنَّكَ تستفيدُ بذلك الأذَى والمُنافرةَ والعداوةَ، ورُبَّما أدَّى ذلك إلى المُطالبةِ والضَّررِ العظيمِ دُونَ مَنْفَعَةٍ أصْلًا».

(١) رواه البخاريُّ (٢٤٥٧)، ومسلم (٢٦٦٨) عَنْ عائشةَ - رضي الله عنها -.

(٢) (صحيح) أخرجه أحمدُ (٥/ ٢٥٢ - ٢٥٦)، والتِّرمذيُّ (٣٢٥٣)، وابْنُ ماجَهْ في المقدِّمة (٤٨) عَنْ أَبي أُمَامَةَ - رضي الله عنه -.

obeikandi.com

كلماتٌ نُورانيَّةٌ :

قال مالكُ بنُ أنَس -رحمه الله-:

«الجِدالُ في الدِّينِ يُفْشِيءُ المَرْءَ[1]، ويَذْهَبُ بِنُورِ العِلْمِ مِنَ القَلْبِ، ويُقَسِّي ويُورِثُ الضَّغائِنَ» «ترتيب المدارك» (١/ ١٧٠).

(١) يُفْشِيءُ المَرْءَ: يَجْعَلُهُ مُسْتكبرًا.

obeikandl.com

احْذَرِ الانزلاق

إنَّ المُجَالسَةَ تُوَلِّدُ المُجانَسَةَ، والصَّاحبُ ساحِبٌ، وَمَنْ عاشَرَ مُتَلَوِّنًا، تبيَّنَ لَهُ -مَعَ الأيامِ- تَلَوُّنُهُ.

المُتَلِّونُ لا يَسْتَقِرُّ على حالٍ، ولا يَقِرُّ لَهُ قرارٌ، يَدُورُ مَعَ مَصْلَحَتِهِ حَيْثُ دارَتْ، ويَمِيلُ مَعَ مَنْفَعَتِهِ حَيْثُ مَالَتْ، ومَنْ جَلَسَ إلى نافخِ الكِيرِ[١] أصابَهُ أَذَاهُ، وَمَنْ يَصْحَبِ الطِّيبَ المُعَطِّرَ يَعْبَقِ.

قال ابنُ عقيلٍ -رحمه الله- مُحذِّرًا من هذا الصِّنفِ مِنَ النَّاسِ: «احْذَرْ مِمَّنْ إذا غَلَبَتْ عليه حَالٌ مِنَ الأَحْوالِ اسْتَحَالَ[٢]، حتَّى لَمْ يَظْهَرْ فِيهِ تقييدُ العَقْلِ على السَّطْحِ[٣]، وإِنْ غَضِبَ تَأَسَّدَ[٤]، فَلَمْ يَبْقَ فِيهِ ما يَكُفُّهُ عَنِ الصَّوْلِ[٥]، وإنِ اعْتَرَاهُ النَّهَمُ[٦]، خَرَجَ بِصُورةِ رَخَمٍ[٧] ساقِطًا على ما وَجَدَ مِنَ المَطَاعِمِ، لا يَلْوِي[٨] عَنْ تَنَاوُلِ المُسْتَقْذَراتِ في الطَّبْعِ، والمكروهاتِ في الشَّرْعِ، وإنْ عرض بها طالبُ الحقِّ، ومُقْتَضى الشَّرْعِ، راغَ[٩] رَوَغَانَ

---

(١) الكِير ـ بالكَسْرِ ـ: مِنْفَخُ الحدَّادِ، والجَمْعُ أَكْيارٌ، وكِيرَةٌ ـ بزِنَةِ عِنَبَةٍ ـ، وكِيرانٌ.

(٢) **استحال:** انْقَلَبَ عَنْ حالِهِ.

(٣) **السَّطح:** البَسْط، وبابُهُ مَنَعَ.

(٤) **تأسد:** صار كالأَسَدِ.

(٥) **الصَّوْل:** السَّطْوُ والاستطالة، وبابُهُ قال، وصَوْلَةً ـ أيضًا ـ.

(٦) **النَّهَم:** إفراط الشَّهْوةِ في الطَّعام، وبابُهُ فَرِحَ.

(٧) **الرَّخَم** ـ بفتحتين ـ: طائرٌ أَبْقَعُ (أَيْ: فيه سوادٌ وبياضٌ)، يُشْبِهُ النَّسْرَ في الخِلْقَةِ، يأكلُ العَذِرَةَ، وَهُوَ مِنَ الخبائث، الواحدةُ رَخَمَةٌ.

(٨) **لا يَلْوي:** لا يُعْرِضُ.

(٩) **راغ:** مال وحادَ عَنِ الشَّيْءِ، وبابُهُ قال، ورَوَغَانًا ـ أيضًا بفتحتَيْنِ ـ.

obeikandi.com

الثَّعْلَب، لا يَمْزُجُ رَوَغَانَهُ ثباتًا، ولا إصغاءً إلى إذْعَانٍ، ولا استجابةً إلى هذا الشَّأْن، فهذا لا يُدَّخَرُ عِنْدَهُ الإحسانُ؛ لأنَّهُ كالوِعَاءِ المُخْتَرِق، ولا يُرْجَى مِنْهُ الخَيْرُ، فاحْذَرْ مُعاشرةَ أَمْثَاله؛ فإنَّها مِنْ أعظم الأَخْطَار، ومَجْمُوعُ هذا في كلمة: لا تُعَاشِرْ مُتَلَوِّنًا»[١].

وَوَصَفَ أَحَدُهُمْ صاحبًا لَهُ، فقال: «مَوَدَّتُهُ مُتَنَقِّلَةٌ كتَنَقُّلِ الأَفْيَاءِ[٢]، وأُخُوَّتُهُ مُتَلَوِّنَةٌ كتَلَوُّنِ الحِرْبَاء»[٣].

قُـلْ للَّذي لَـسْتُ أَدْري مِـنْ تَلَوُّنِهِ ... نَـاصِـحٌ أَمْ على غِشٍّ يُدَاجيني[٤]:
تَغْتَابُني عِنْدَ أَقْــوامٍ، وتَمْدَحُني ... في آخَــرِيــنَ، وكُـلُّ ذلـك يَأْتِيني[٥]

مِنْ مِشْكَاةِ النُّبُوَّةِ:

قال رَسُولُ الله -ﷺ-: «تَجِدُ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ يَوْمَ القِيامةِ عِنْدَ اللهِ ذا الوَجْهَيْنِ: الَّذي يَأْتي هؤلاءِ بوَجْهٍ، وهؤلاءِ بوَجْهٍ».

رواه البخاريُّ (٧١٧٩)، ومسلم (٢٥٢٦) عَنْ أبي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه-.

(١) «الفُنُون» (١/ ٤١٤).
(٢) الأَفْيَاء: جَمْعُ فَيْءٍ، وهُوَ الظِّلُّ الَّذي بَعْدَ الزَّوالِ، سُمِّي فَيْئًا لرُجُوعِهِ مِنْ جانبٍ إلى جانبٍ.
(٣) «محاضرات الأُدباء» (٣/ ٤٠).
(٤) يُقالُ: داجاهُ: إذا داراهُ كأنَّهُ ساتَرَهُ العَدَاوةَ.
(٥) «محاضرات الأدباء» (٣/ ٤٠).

مِحْنَةُ الكِرَامِ

إنَّ المَرْءَ لا يَزَالُ يَتَقَلَّبُ بَيْنَ مِحَنٍ لا تَنْقَضي إلى أنْ يُوارَى الثَّرَى، وأَعْظَمُها مِحْنَتُهُ بأَهْلِ جِنْسِهِ، وما أَحَدٌ يَعْدَمُ عَدُوًّا، ولا يَفْقِدُ حاسِدًا.

فما دام الأَمْرُ كما ذَكَرْتُ لك، فاعْلَمْ أَنَّهُ بحسبِ قَدْرِ النِّعْمةِ تَكْثُرُ الأَعْداءُ والحَسَدَةُ.

كما قال البُحْتُرِيُّ:

وَلَنْ تَسْتَبِينَ -الدَّهْرَ- مَوْقِعَ نِعْمَةٍ إذا أَنْتَ لَمْ تُدْلَلْ عَلَيها بحاسِدِ [١]

وَمِن دُرَرِ العلَّامةِ ابنِ حَزمٍ -رحمه الله-: «إنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ عَدُوٌّ فلا خَيْرَ فيكَ، ولا منزلةَ أَسْقَطَ مِنْ مَنْزِلَةِ مَنْ لا عَدُوَّ لَهُ؛ فَلَيْسَتْ إلَّا مَنْزِلَةَ مَنْ لَيْسَ للهِ ـ تعالى ـ عِنْدَهُ نِعْمةٌ يُحْسَدُ عَلَيْها، عافانا اللهُ»[٢].

قُلتُ: لا يَحْسُنُ قَرْشُ العَصَا للعَدُوِّ قَبْلَ الإعدادِ، ولا قَدْحُ[٣] زَنْدِهِ[٤] بإخبارِهِ بعَدواتِكَ لَهُ، فيُوقِدَ عليك نارَهُ، ولا تَسْخِينُ صَدْرِهِ، فيَقْلِبَ لك ظَهْرَ المِجَنِّ[٥]، وحالُهُ: «خُذِ اللِّصَّ قَبْلَ أَنْ يأخُذَكَ».

فإنَّ الحياةَ قصيرةٌ، والعُمُرُ أَجَلُّ وأعظمُ مِنْ أنْ يَضِيعَ في تِلْكَ التَّوافهِ.

لَوْ كُلُّ كَلْبٍ عَوَى أَلْقَمْتُهُ حَجَرًا لَأَصْبَحَ الصَّخْرُ مِثْقَالًا بدِينارِ

---

(١) انظر «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص١٨٠).

(٢) «الأخلاق والسِّير» (ص١٧٨).

(٣) قَدْحُ الزَّنْدِ: إيراؤُهُ وإخراجُ ناره، وبابُهُ قَطَعَ.

(٤) الزَّنْدُ ـ بالفتح ـ: العُودُ الَّذي يُقْدَحُ به النَّارُ، والجَمْعُ زِنادٌ، وأَزْنُدٌ، وأزنادٌ.

(٥) المِجَنُّ ـ بالكسر ـ: التُّرْسُ؛ لأَنَّهُ يَسْتُرُ حامِلَهُ، والجَمْعُ المَجَانُّ ـ بالفتح ـ.
وقولُهُمْ: قَلَبَ لَهُ ظَهْرَ المِجَنِّ: كلمةٌ تُضْرَبُ مَثَلًا لِمَنْ كان لصاحِبِهِ على مودَّةٍ أوْ رعايةٍ، ثُمَّ حال عَنْ ذلك.

obeikandl.com

وَهَلْ كان سَلَفُنا الصَّالحُ يَلْتَفتُونَ إلى مِثْلِ تِلْكَ الأُمورِ؟، إنَّما كان لَهُمْ سَلاحانِ: المُداراةُ، والتَّغافُلُ، فسارت الشَّمْسُ في فَلَكِها رغمَ نُباحَ الكِلَابِ، وعُوَاءِ الذِّئابِ، فعاشُوا آمِنينَ مُغْتَبطِينَ في ذِمَّةِ الحَمْدِ والسَّلامة.

قال ابنُ المُقفَع: «لِيَكُنْ مِمَّا تَنْتَظِرُهُ مِنْ أَمْرِ عَدُوِّكَ وحاسِدِكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ لا يَنْفَعُكَ أَنْ تُخْبِرَ عَدُوَّكَ وحاسِدَكَ أَنَّكَ لَهُ عَدُوٌّ، فَتُنْذِرَهُ نَفْسَكَ، وتُؤْذِنَهُ بحَرْبِكَ قَبْلَ الإعدادِ والفُرْصَةِ، فتَحْمِلَهُ على التَّسلُّحِ لَكَ، وتُوقِدُ نارَهُ عَلَيْكَ، واعْلَمْ أَنَّهُ أَعْظَمُ لِخَطَرِكَ[1] أَنْ يَرَى عَدُوُّكَ أَنَّكَ لا تَتَّخِذُهُ عَدُوًّا؛ فإنَّ ذلك غِرَّةٌ[2] وسَبيلٌ لَكَ إلى القُدْرةِ عليه.

فإنْ أَنْتَ قَدَرْتَ واسْتَطَعْتَ اغتفارَ العَداوةِ عَنْ أَنْ تُكافِئَ بها ـ فهُنالِكَ اسْتَكْمَلْتَ عَظِيمَ الخَطَرِ»[3].

وإذا عَجَزْتَ عَنِ العَدُوِّ فَدَارِه ... وامْزَحْ لَهُ، إنَّ المِزاحَ وِفَاقُ

فالنَّارُ بالماءِ الَّذي هُوَ ضِدُّهَا ... تُعْطِي النَّضاجَ، وطَبْعُها الإحْراقُ[4]

تجارب:

قال ابنُ الجَوزيّ ـ رحمه الله ـ: «مِمَّا أفادَتْني تَجارِبُ الزَّمَانِ: أَنَّهُ لا يَنْبَغي لأَحَدٍ أَنْ يُظاهِرَ بالعَداوَةِ أَحَدًا ما اسْتَطَاعَ» «صَيْدُ الخاطر» (ص١٦٩).

---

(١) الخَطَر ـ بفتحتين ـ: الشَّرَفُ ورِفْعَةُ القَدْرِ.

(٢) غرة: غفلة.

(٣) «الأدب الصغير، والأدب الكبير» (ص١١٢ ـ ١١٣).

(٤) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص١٨٢).

الثِّقَةُ بكُلِّ أحَدٍ عَجزٌ

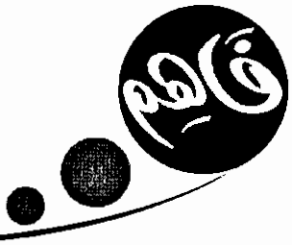

فاهم

إنَّ الثِّقَةَ بكُلِّ أحَدٍ لَيْسَ مِنَ الحَزْمِ، بَلِ الحَزْمُ حَجْبُ الثِّقةِ حتَّى تَجِدَ لها مَوْضِعًا، وقُلْ مِثْلَ ذلكَ في الاسترسالِ.

لا شَكَّ أَنَّ إطلاقَ الثِّقَةِ بلا زِمامٍ ولا خِطَامٍ لَيْسَ مُرُوءةً ولا فضيلةً، بَلْ مهانةً وضَعْفًا، وكذلك الاسترسالُ.

يَقُولُ ابنُ حَزمٍ -رحمه الله-: «مَنِ امْتُحِنَ بأنْ يُخَالِطَ النَّاسَ، فلا يُلْقِ بوهمِهِ كُلِّه إلى مَنْ صَحِبَ، ولا يَبْنِ مِنْهُ إلاَّ على أنَّهُ عَدُوٌّ مُناصِبٌ، ولا يُصْبِحُ كُلَّ غداةٍ إلاَّ وَهُوَ مُتَرَقِّبٌ مِنْ غَدْرِ إخوانِهِ، وسُوءِ مُعامَلَتِهِمْ، مِثْلَما يترقَّبُ مِنَ العَدُوِّ المُكَاشِفِ، فإنْ سَلِمَ مِنْ ذلك، فللّهِ الحَمْدُ، وإنْ كانتِ الأُخْرَى؛ أُلْفَى[1] مُتَأَهِّبًا، وَلَمْ يَمُتْ همًّا.

وأَنَا أُعْلِمُكَ أَنَّ بَعْضَ مَنْ خالَصَني المودَّةَ، وأَصْفَاني إيَّاها غايةَ الصَّفاءِ في حالِ الشِّدَّةِ والرَّخاءِ، والسَّعَةِ والضِّيقِ، والغَضَبِ والرِّضَى - تَغَيَّرَ عليَّ أَقْبَحَ تَغَيُّرٍ بَعْدَ اثْنَيْ عَشَرَ عامًا مُتَّصلةً في غايةِ الصَّفاءِ، لسَبَبٍ لطيفٍ جدًّا، ما قدَّرْتُ - قطُّ - أَنَّهُ يُؤَثِّرُ مِثْلُهُ في أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، ما صَلُحَ لي بَعْدَها، ولَقَدْ أَهَمَّني ذلك سِنِينَ كثيرةً هَمًّا شَدِيدًا»[2].

وقال ابنُ الجوزيِّ -رحمه الله-: «مِنْ أَعْظَمِ الغَلَطِ الثِّقَةُ بالنَّاسِ والاسترسالُ إلى الأَصْدِقاءِ؛ فإنَّ أشدَّ الأعداءِ وأَكْثَرَهُمْ أذىً الصَّديقُ المُنْقَلِبُ عَدُوًّا؛ لأنَّهُ قَدِ اطَّلَعَ على خفِيِّ السِّرِّ.

(١) أُلْفَى: وُجِدَ.
(٢) «الأخلاق والسِّير» (ص١١٦).

قال الشَّاعِرُ:

احْـــذَرْ عَــــدُوَّكَ مَـــرَّةً ... واحْـــذَرْ صَـدِيـقَـكَ أَلْـفَ مـرَّهْ
فَـلَـرُبَّـمـا انْـقَـلَـبَ الـصَّـدِيـقُ ... فـكـان أَدْرَى بـالـمَـضَـرَّهْ

وقال آخر:

كُـنْ مِـنْ صَدِيْقِكَ حَـاذِرًا فَلَرُبَّما ... خَـانَ الصَّدِيقُ فَصَارَ غَـيْرَ صَدِيْقِ
واحـذَر صَـدِيْـقَـكَ لَا عَـدُوكَ إنَّـمَا ... حَـرَكَـاتُ سِرِّكَ عِنْدَ كُـلِّ صَدِيْقِ

وقال ابن ليون التجيبي:

قَـلَّـما يـؤذِيـكَ مَـنْ لَا يَـعْـرِفُـكْ ... فَـتَـحَـفَّـظْ مِـنْ صَـدِيْـقٍ يَألفُكْ
لَا تَـثِـقْ بـالـوُدِّ مِمَّـنْ تَصْطَفِيْ ... كَـمْ صَـدِيـقٍ تَصْطَفِيْهِ يُتْلِفُكْ

واعْلَمْ أنَّ مِنَ الأَمْرِ المَوْضُوعِ في النُّفُوسِ الحَسَدُ على النِّعَم، أَوِ الغِبْطَةُ وَحُبُّ الرِّفْعَةِ، فإذا رآكَ مَنْ يَعْتَقِدُكَ مثلًا لَهُ، وَقَدِ ارْتَقَيتَ عليه، ولا بُدَّ أَنْ يتأَثَّرَ، ورُبَّما حَسَدَ، فإنَّ أُخْوَةَ يُوسُفَ -عليه السلام- مِنْ هذا الجِنْسِ جَرَى لَهُمْ.

فإن قُلتَ: كَيْفَ يَبْقَى الإنسانُ بلا صديقٍ؟. قُلْتُ لَكَ: أتراكَ ما تَعْلَمُ أنَّ الُمجانِسَ يَحْسُدُ، وأنَّ أكثرَ العَوامِّ يَعْتَقِدُونَ في العالِمِ أنَّهُ لا يَبْتَسِمُ، ولا يَتَناوَلُ مِنْ شَهَواتِ الدُّنْيا شَيْئًا، فإذا رَأَوْا بَعْضَ انْبِساطِهِ في المُباحِ، هَبَطَ مِنْ أَعْيُنِهِمْ، فإذا كانتْ هذِهِ حالةَ العَوامِّ، وتِلْكَ حالةَ الخَواصِّ، فَمَعَ مَنْ تَكُونُ المُعاشرةُ؟!.

لا بَلْ واللهِ، ما تَصِحُّ المُعاشرةُ مَعَ النَّفْسِ؛ لأَنَّها مُتَلَوِّنَةٌ، ولَيْسَ إلَّا المُداراةُ للخَلْقِ، والاحترازُ مِنْهُمْ، واتِّخاذُ المعارفِ مِنْ غَيْرِ طَمَعٍ في صَدِيقٍ صادِقٍ، فإنْ نَدَرَ فَلْيَكُنْ

غَيْرَ مُماثِلٍ؛ لأنَّ الحَسَدَ إليه أَسْبَقُ، ولْيَكُنْ مُرْتفعًا عَنْ رُتبةِ العَوَامِّ، غَيْرَ طامعٍ في نَيْلِ مقامِكَ.

وإنْ كانتْ مُعاشرةُ هذا لا تَشْفي؛ لأنَّ المُعاشرةَ يَنْبغي أَنْ تكُونَ بَيْنَ العُلَماءِ مِنْ مُجانسٍ، لَزِمَهُمْ مِنَ الإشاراتِ في المُخالطةِ ما تطيبُ بِهِ المجالسةُ، ولكنْ لا سبيلَ إلى الوِصَالِ»[١].

وقال جَعْفَرُ بنُ مُحَمَّدٍ: «إيَّاكَ وسَقْطَةَ[٢] الاسترسالِ؛ فإنَّها لا تُسْتَقَالُ»[٣].

وَقِيلَ: «صُنِ الاسترسالَ مِنْكَ، حتَّى تَجِدَ لَهُ مُسْتحقًّا»[٤].

وَقِيلَ: «الإفراطُ في التَّواضُعِ يُوجِبُ المَذَلَّةَ، والإفراطُ في المُؤانسةِ يُوجِبُ المَهانَةَ»[٥].

فَتِلْكَ إشاراتٌ على الطَّريقِ، وما مِنَّا مِنْ أَحَدٍ إلَّا وَقَدْ جَرَتْ لَهُ مِحْنَةٌ مِنْ صَدِيقٍ مُماثِلٍ، أَوْ قَرِيبٍ مُشاكِلٍ.

ويُعْجِبُني ما ذكرهُ الأَخُ وليدُ الرَّيْميُّ ـ حفظه الله ـ في هذا المَعْنَى مِنْ شِعْرٍ لَهُ:

وكُلُّ الَّذي أَدْرِيهِ أَنَّ تَجَرُّعِي ... كُئُوسَ المَرارةِ كانَ مِنْ أَحْبابِي
فَكَمْ قَدْ ظُلِمْتُ مِنَ الأَحِبَّةِ دُونَما ... ذُنُوبٍ أُقارِفُها وجاءَ مَتابِي
وَقَدْ قِيلَ عَنِّي كُلُّ شَرٍّ وَتُهْمَةٍ ... فَكَيْفَ بِمِثْلِي لا يُحَاطُ بما بِي؟!
سَأَكْتُمُ ما أَلْقَاهُ مِمَّنْ يُسِيءُ لي ... إلى أَنْ يَصِيرَ السوءُ بَعْضَ سَرَابِ
ويا ربِّ، عِلْمُكَ بالقُلُوبِ وأَهْلِها ... يُرِيكَ مَدَى حُبِّي، وبُغْضِ صِحَابِي
على كُلِّ حالٍ لَيْسَ شَيْءٌ يُهِمُّني ... إذا سِرْتُ دَرْبَ الواحِدِ الوَهَّابِ[٥]

---

(١) «صَيْدُ الخاطر» (ص ١٣٤ ـ ١٣٥).

(٢) السَّقْطة ـ بالفتح ـ: العَثْرةُ والزَّلَّةُ.

(٣) «محاضرات الأدباء» (٣/ ٣١).

(٤) المرجع السابق (٣/ ٣١).

(٥) المرجع السابق (١/ ٥٤٥).

ومن روائع الببغاء البغدادي:

وأَكْثَرُ مَنْ تَلْقَى يَسُرُّكَ قَوْلُهُ ... ولَكِنْ قَلِيلٌ مَنْ يَسُرُّكَ فِعْلُهُ
وَقَدْ كَانَ حُسْنُ الظَّنِّ بعض مَذَاهِبِيْ ... فَأَدبني هذا الزَّمَانُ وأَهْلُهُ

عَسْجَدٌ:

قال أَكْثَمُ بْنُ صَيفيٍّ:

«الانقباضُ عَنِ النَّاسِ مَكْسَبَةٌ للعَداوةِ، والانْبِسَاطُ إِلَيْهِمْ مَجْلَبَةٌ لقُرنَاءِ السُّوْءِ». «محاضرات الأدباء» (٣/ ٣١).

---

(١) مِنْ قصيدة لأخينا وليد في مَدْحِ شَيْخِنا ووالدِنا مُقْبِلِ الوادِعِيِّ -رحمه الله-، انظرها في ترجمته (ص ٧٣١)، ومَطْلَعُها:

بَدَأْتُ بِبِسْمِ اللهِ خَطَّ كِتَابي ... وأَحْمَدُ ربِّي عِنْدَ كُلِّ جَوَابِ
إلى مُقْبِلٍ مَلِكِ الحَدِيثِ وشَيْخِهِ ... سلامٌ عَلَيْكَ، ثُمَّ هَاكَ خِطَابي
أَيَا شَيْخَ حِمْيَرَ والجَزِيرةِ كُلِّها ... لأَجْلِكَ أُخْرِجُ مُنْتَهى آدابي
لِمثْلِكَ أَطْرَبُ بالنَّشِيدِ تَرَنُّمًا ... وَأَنْسجُ بالإِبْدَاعِ أَحْلَى ثِيَابِ
فَعِلْمُكَ في الوِدْيَانِ والبَحْرِ وَاصِلٌ ... كذاكَ وفي الصَّحْراءِ وَفَوْقَ هِضَابِ

كُلُّنا ذَوُو خَطَإٍ

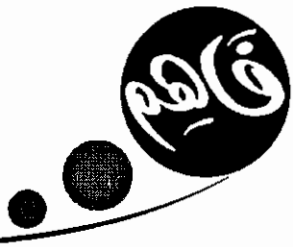

إنَّ التَّعامُلَ مَعَ النَّاسِ على أنَّهُمْ بَشَرٌ جُبِلُوا على الخَطَإِ، وقُدِّرَتْ عَلَيْهِمُ الذُّنُوبُ. مَسْلَكٌ عَزِيزٌ، يَحْسُنُ بِكُلِّ أَحَدٍ سُلُوكُهُ؛ لِيَعْذِرَ النَّاسَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، ويَلْتَمِسَ لَهُمُ المعاذِيرَ، وإنْ لَمْ يَعْتَذِرُوا.

وَلْنَنْظُرْ إلى الأنبياءِ والصَّالحين كَيْفَ يَعْتَرِيهِمْ ما يَعْتَرِي غَيْرَهُمْ، فَتَجْرِي مِنْهُمُ الهَفَواتُ الَّتي لا تُنْزِلُ مِنْ أَقْدَارِهِمْ؛ لأنَّ مُسْتَقَرَّها في بَحْرِ حَسَناتِهِمْ: فهذا آدمُ أَبُو البَشَرِ -عليه السلام- ظَلَّ إبليسُ يُغْرِيهِ ويُمَنِّيهِ، حتَّى أَخْرَجَهُ وزَوْجَهُ مِنَ الجنَّةِ ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ (الأعراف: ٢٢).

ومُوسَى الكليمُ يُلْقِي الأَلْوَاحَ وفيها هُدىً ورحمةٌ، ويَأْخُذُ برَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إليه ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ (الأعراف: ١٥٠).

ويُصَاحِبُ الخَضِرَ على عَدَمِ المُخالفةِ، ثُمَّ يُخالِفُهُ مِرارًا، حتَّى قال لَهُ:

﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ۝٧٦﴾ (الكهف: ٧٦).

ثُمَّ يَسْأَلُ بَعْدَ ذلك، ويتعقَّبُ بقَوْلِهِ:

﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ (الكهف: ٧٧).

ونبيُّنا محمَّدٌ -صلى الله عليه وسلم- هُوَ -أَيْضًا- بَشَرٌ[1]، يَأْتِيهِ ذُو جاهٍ وأَعْمَى لا جاهَ لَهُ، فَيُقْبِلُ على الأوَّلِ، ويُعْرِضُ عَنِ الثَّاني، فَيُعَاتِبُهُ رَبُّهُ عِتَابًا لَطِيفًا بقَوْلِهِ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ (عبس: ١).

---

(١) ذلك حَقٌّ لا رَيْبَ فِيهِ، يَقُولُ اللهُ -سُبْحانَهُ-: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ (الكهف: ١١٠).
ورَوَى مسلمٌ (٢٦٠٣) مِنْ حَديثِ أَنَسٍ -رضي الله عنه- قال: قال رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «**إِنَّما أَنا بَشَرٌ، أَرْضَى كما يَرْضَى البَشَرُ، وأَغْضَبُ كما يَغْضَبُ البَشَرُ**».

obeikandl.com

وأمَّا الصَّالِحُونَ فَلْنَنْظُرْ إلى جِيلِ الصَّحابةِ خَيْرِ القُرُونِ:

ـ فَمِنْهُمْ مَنْ كان يُحِبُّ المالَ:

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ (آل عمران: ١٥٢)[1].

ـ وَمِنْهُمْ مَنْ فَرَّ مِنَ القِتَالِ، لكِنَّ اللهَ عَفَا عَنْهُمْ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ (آل عمران: ١٥٥).

وَوَقَعَ بَعْضُهُمْ في يَمِينٍ كَذِبٍ مِنْ أَجْلِ عَرَضٍ مِنَ الدُّنيا[2].

حتَّى أَفْضَلُهُمْ على الإطْلاقِ يَعْتَرِيهِ ما يَعْتَرِي البَشَرَ، فها هُوَ يُغَاضِبُ الأَضْيَافَ، ويَسُبُّ وَلَدَهُ؛ ويَنَالَ مِنْهُ غايةَ النَّيْلِ لتقصيرِهِ في حَقِّ الأَضْيافِ[3].

---

(١) مِمَّا يَدُلُّ على أنَّ مِنَ الصَّحابةِ مَنْ كان يُحِبُّ المالَ ما جاء في البُخاريِّ (٤٠١٥)، ومسلم (٢٩٦١) مِنْ حديثِ عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ -رضي الله عنه-: أَنَّ رَسُولَ الله -ﷺ- بَعَثَ أبا عُبَيْدَةَ بْنَ الجرَّاحِ إلى البَحْرَيْنِ، يَأْتِي بجزْيَتِها، وكان رَسُولُ الله -ﷺ- هُوَ صَالَحَ أَهْلَ البَحْرَيْنِ، وأَمَّرَ عليهم العَلاءَ بْنَ الحَضْرَمِيِّ، فَقَدِمَ أبو عُبَيْدَةَ بمالٍ مِنَ البَحْرَيْنِ، فَسَمِعَتِ الأَنْصارُ بقُدُومِ أبي عُبَيْدَةَ، فَوَافَوْا صلاةَ الفَجْرِ مَعَ رَسُولِ الله -ﷺ- فَلَمَّا انْصَرَفَ تَعَرَّضُوا لَهُ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- حِينَ رَآهُمْ، ثُمَّ قال: «**أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أبا عُبَيْدَةَ قَدِمَ بشَيْءٍ؟**». قالوا: أَجَلْ يا رَسُولَ الله. قال: «**فَأَبْشِرُوا وأَمِّلُوا ما يَسُرُّكُمْ، فوالله، ما الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، ولكنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيا، كما بُسِطَتْ على مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ، فتنافَسُوها كما تَنَافَسُوها، وتُهْلِكَكُمْ كما أَهْلَكَتْهُمْ**».

(٢) رَوَى البخاريُّ (٢٧٨٠) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عبَّاسٍ -رضي الله عنهما- قال: خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَهْمٍ مَعَ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ وعَدِيِّ ابْنِ بَدَّاءٍ، فمات السَّهْمِيُّ بأَرْضٍ لَيْسَ بها مُسْلِمٌ، فلمَّا قَدِما بتَرِكَتِهِ، فَقَدُوا جَامًا مِنْ فِضَّةٍ مُخَوَّصًا مِنْ ذَهَبٍ، فَأَحْلَفَهُما رَسُولُ اللهِ -ﷺ-، ثُمَّ وُجِدَ الجَامُ بمكَّةَ، فقالُوا: ابْتَعْنَاهُ مِنْ تَمِيمٍ وعَدِيٍّ، فقام رَجُلَانِ مِنْ أَوْلِيَاءِ السَّهْمِيِّ، فَحَلَفا: لَشَهادَتُنا أَحَقُّ مِنْ شَهادَتِهِمَا. وإِنَّ الجامَ لصاحِبِهِمْ. قال: وَفِيهِمْ نَزَلَتْ هذِهِ الآيةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ (المائدة: ١٠٦).

(٣) رَوَى البخاريُّ (٦١٤٠، ٦١٤١) ومسلم (٢٠٥٧) مِنْ حديثِ عَبْدِ الرَّحمن بْنِ أبي بَكْرٍ -رضي الله عنهما-: أَنَّ أصحابَ الصُّفَّةِ كانوا ناسًا فُقَراءَ وإِنَّ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- قال مَرَّةً: «مَنْ كَانَ عِنْدَهُ طعامُ اثْنَيْنِ،

وَمَنْ قال رَسُولُ اللهِ - ﷺ - في حقِّهِ: «ما أَظَلَّتِ الخَضْراءُ(١)، ولا أَقَلَّتِ(٢) الغَبْرَاءُ(٣) مِنْ رَجُلٍ أَصْدَقَ مِنْ أبي ذَرٍّ»(٤).

- يَسُبُّ رَجُلًا، فَيُعَيِّرُهُ بِأُمِّهِ(٥).(٦)

فَلْيَذْهَبْ بثلاثة، ومَنْ كان عِنْدَهُ طعامُ أَرْبعةٍ، فَلْيَذْهَبْ بخامسٍ بسادسٍ». أَوْ كما قال، وإنَّ أبا بَكْرٍ جاء بثلاثةٍ، وانْطَلَقَ نبيُّ اللهِ - ﷺ - بعَشَرةٍ، وأَبُو بَكْرٍ بثلاثة، قال: فَهُوَ وأنا وأبي وأُمِّي - ولا أَدْري هَلْ قال: وامْرَأتي وخادمٌ بَيْنَ بَيْتِنَا وبَيْتِ أبي بَكْرٍ - قال: وإنَّ أبا بَكْرٍ تَعَشَّى عِنْدَ النَّبيِّ - ﷺ -، ثُمَّ لَبِثَ حتَّى صُلِّيَت العِشَاءُ، ثُمَّ رَجَعَ، فَلَبِثَ حتَّى نَعَسَ رَسُولُ الله - ﷺ -، فجاء بَعْدَ ما مَضَى مِنَ اللَّيْلِ ما شَاءَ اللهُ، قالتْ لَهُ امْرَأَتُهُ: ما حَبَسَكَ عَنْ أَضْيافِكَ - أَوْ قالتْ: ضَيْفِكَ - ؟. قال: أَوَ مَا عَشَّيْتِهِمْ؟. قالتْ: أَبَوْا حَتَّى تَجيءَ، قَدعَرَضُوا عَلَيْهِمْ فَغَلَبُوهُمْ. قال: فَذَهَبْتُ أنا فاخْتَبَأْتُ، وقال: يا غُنْثَرُ، فَجَدَّعَ وسَبَّ، وقال: كُلُوا، لا هَنيئًا. وقال: والله، لا أَطْعَمُهُ أَبَدًا. قال: فايْمُ اللهِ، ما كُنَّا نَأْخُذُ مِنْ لُقْمَةٍ إلَّا رَبَا مِنْ أَسْفَلِها أكثرَ منْها. قال: حتَّى شَبِعْنا، وصارَتْ أَكْثَرَ ممَّا كانتْ قَبْلَ ذلك، فَنَظَرَ إليها أَبو بَكْرٍ، فإذا هي كما هي أَوْ أَكْثَرُ، قال لامْرَأَتِهِ: يا أُخْتَ بني فِراسٍ، ما هذا؟. قالتْ: لا، وَقُرَّةِ عَيْني، لَهِيَ الآنَ أكثرُ منْها قَبْلَ ذلك بثَلاث مِرَارٍ، قال: فَأَكَلَ منها أَبو بَكْرٍ، وقال: إنَّما كان ذلك مِنَ الشَّيْطَانِ - يَعْني يَمينَهُ -، ثُمَّ أَكَلَ مِنها لُقْمةً، ثُمَّ حَمَلَها إلى رَسُولِ الله - ﷺ -، فأَصْبَحَتْ عِنْدَهُ، قال: وكان بَيْنَنا وبَيْنَ قَوْمٍ عَقْدٌ، فَمَضَى الأَجَلُ، فَعَرَّفْنا اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، مَعَ كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ أُنَاسٌ، اللهُ أَعْلَمُ كَمْ مَعَ كُلِّ رَجُلٍ، إلَّا أَنَّهُ بَعَثَ مَعَهُمْ، فَأَكَلُوا مِنْها أَجْمَعُونَ، أَوْ كما قال.

(١) الخَضْراء: السَّماء.

(٢) أَقَلَّتْ: رَفَعَتْ وحَمَلَتْ.

(٣) الغَبْراء: الأرض.

(٤) (صحيح) أخرجه أحمدُ في «المُسند» (٢/ ١٦٣)، والتِّرْمذيُّ (٣٨٠١) عَنِ ابْنِ عَمْرٍو - رضي الله عنهما -، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٥٥٣٧).

(٥) رَوَى البخاريُّ (٦٠٥٠)، ومسلم (١٦٦١) مِنْ حَديثِ أبي ذَرٍّ - رضي الله عنه - قال: كان بَيْني وبَيْنَ رَجُلٍ كلامٌ، وكانَتْ أُمُّهُ أَعْجَميَّةً، فَنِلْتُ مِنْها، فَذَكَرَني إلى النَّبيِّ - ﷺ -، فقال لي: «أَسَابَبْتَ فُلَانًا؟». قُلْتُ: نَعَمْ. قال: «أَفَنِلْتَ مِنْ أُمِّهِ؟». قُلْتُ: نَعَمْ. قال: «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جاهِلِيَّةٌ». قُلْتُ: على حِينِ ساعَتِي: هذه مِنْ كِبَرِ السِّنِّ؟. قال: «نَعَمْ».

(٦) انظر «فقه الأخلاق» للعَدَوِيِّ (ص١١٢) وما بَعْدَها.

والمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو يَأْتِيهِ الشَّيْطَانُ، فَيُغْرِيهِ بِشُرْبِ نَصِيبِ رَسُولِ اللهِ - ﷺ - مِنَ اللَّبَنِ(١).

فَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ هؤلاءِ؟!.

قَوْمٌ هُمُ الأَنْفُ، والأَذْنَابُ غَيْرُهُمُ   وَمَنْ يُسَاوِي بِأَنْفِ النَّاقَةِ الذَّنَبَا؟

---

(١) رَوَى مسلمٌ (٢٠٥٥) عَنِ المِقْدَادِ قال: أَقْبَلْتُ أَنَا وصاحِبَانِ لي، وقَدْ ذَهَبَتْ أَسْمَاعُنا وأَبْصَارُنا مِنَ الجَهْدِ (أَيِ: الجُوعِ والمَشَقَّةِ)، فَجَعَلْنا نَعْرِضُ أَنْفُسَنا على أَصْحابِ رَسُولِ اللهِ - ﷺ -، فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَقْبَلُنا، فَأَتَيْنا النَّبِيَّ - ﷺ -، فانْطَلَقَ بنا إلى أَهْلِه، فإذا ثلاثةُ أَعْنُزٍ، فقال النَّبِيُّ - ﷺ -: «**احْتَلِبُوا هذا اللَّبَنَ بَيْنَنا**». قال: فكُنَّا نَحْتَلِبُ، فَيَشْرَبُ كُلُّ إنسانٍ مِنَّا نَصِيبَهُ، ونَرْفَعُ للنَّبِيِّ - ﷺ - نَصِيبَهُ. قال: فَيَجِيءُ مِنَ اللَّيلِ، فَيُسَلِّمُ تسليمًا لا يُوقِظُ نائمًا، ويُسْمِعُ اليَقْظانَ. قال: ثُمَّ يَأْتي المَسْجِدَ فَيُصَلِّي، ثمَّ يأتي شرابَهُ فيشربُ، فأتاني الشَّيْطانُ ذاتَ لَيْلَةٍ، وقَدْ شَرِبْتُ نَصِيبي، فقال: محمَّد يَأْتي الأَنْصارَ، فَيُتْحِفُونَهُ، ويُصِيبُ عِنْدَهُمْ، ما بِهِ حاجةٌ إلى هذه الجُرْعَةِ؛ فَأَتَيْتُها فَشَرِبْتُها، فلمَّا أَنْ وَغَلَتْ في بَطْني، وَعلِمْتُ أَنَّه لَيْسَ إليها سبيلٌ، قال: نَدَّمَني الشَّيطانُ، فقال: وَيْحَكَ، ما صَنَعْتَ؟، أَشَرِبْتَ شَرابَ مُحمَّدٍ؟!، فيجيءُ فلا يَجِدُهُ، فيَدْعُو عَلَيْكَ فَتَهْلِكُ، فَتَذْهَبُ دُنْيَاكَ وآخِرَتُكَ، وعليَّ شَمْلَةٌ إذا وَضَعْتُها على قَدَمَيَّ خَرَجَ رَأْسي، وإذا وَضَعْتُها على رَأْسي خَرَجَ قَدَمَايَ، وَجَعَلَ لا يَجِيئُني النَّوْمُ، وأَمَّا صاحِبَايَ فناما، ولَمْ يَصْنَعا ما صَنَعْتُ. قال: فجاء النَّبِيُّ - ﷺ -، فسلَّم كما كان يُسَلِّمُ، ثُمَّ أَتَى المَسْجِدَ فَصَلَّى، ثُمَّ أَتَى شَرابَهُ، فكَشَفَ عَنْهُ، فَلَمْ يَجِدْ فيهِ شَيْئًا، فَرَفَعَ رَأْسَهُ إلى السَّماءِ، فَقُلْتُ: الآنَ يَدْعُو عليَّ فَأَهْلِكُ. فقال: «**اللَّهُمَّ أَطْعِمْ مَنْ أَطْعَمَني، وأَسْقِ مَنْ أَسْقَاني**». قال: فَعَمَدْتُ إلى الشَّمْلَةِ، فَشَدَدْتُها عليَّ، وأَخَذْتُ الشَّفْرَةَ، فانْطَلَقْتُ إلى الأَعْنُزِ أَيُّها أَسْمَنُ، فَأَذْبَحُها لرسُولِ اللهِ - ﷺ -، فإذا هي حافِلَةٌ، وإذا هُنَّ حُفَّلٌ كُلُّهُنَّ، فَعَمَدْتُ إلى إناءٍ لآلِ محمَّدٍ - ﷺ - ما كانوا يَطْمَعُونَ أَنْ يَحْتَلِبُوا فيه. قال: فَحَلَبْتُ فيه، حتَّى عَلَتْهُ رَغْوَةٌ، فَجِئْتُ إلى رَسُولِ اللهِ - ﷺ -، فقال: «**أَشَرِبْتُمْ شَرابَكُمُ اللَّيْلَةَ؟**». قُلْتُ: يا رَسُولَ اللهِ، اشْرَبْ. فَشَرِبَ ثُمَّ ناوَلَني، فَقُلْتُ: يا رَسُولَ اللهِ، اشْرَبْ، فَشَرِبَ ثُمَّ ناولني، فلمَّا عَرَفْتُ أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - قَدْ رَوِيَ، وأَصَبْتُ دَعْوَتَهُ، ضَحِكْتُ حتَّى أُلْقِيتُ إلى الأَرْضِ. قال: فقال النَّبِيُّ - ﷺ -: «**إِحْدَى سَوْآتِكَ يا مِقْدَادُ**». فَقُلْتُ: يا رسولَ اللهِ، كان مِنْ أَمْرِي كَذَا وكَذَا، وفَعَلْتُ كَذَا. فقال النَّبِيُّ - ﷺ -: «**ما هذِهِ إلَّا رَحْمَةٌ مِنَ اللهِ، أَفَلا كُنْتَ آذَنْتَني، فَنُوقِظَ صاحِبَيْنَا، فَيُصِيبانِ مِنْها**». قال: فَقُلْتُ: والَّذي بَعَثَكَ بالحقِّ، ما أُبالي إذا أَصَبْتَها، وأَصَبْتُها مَعَكَ مَنْ أَصَابَها مِنَ النَّاسِ.

يا قومِ: «ارْحَمُوا أَهْلَ الأَرْضِ، يَرْحَمْكُمْ مَنْ في السَّماءِ[١]»، فالمُهَذَّبُ السالمُ مِنَ الخَطَإِ عَزِيزٌ مَعَ إدبارِ الدُّنيا، ومَعَ إقبالِها، أَنْدَرُ مِنَ الكِبْرِيتِ الأَحْمَرِ[٢]، وها هُمُ الأَنْبياءُ والصَّالِحونَ ما سَلِمُوا مِنَ الخَطَإِ، فَغَيْرُهُمْ مِنْ بابٍ أَوْلَى.

هُمُ النَّاسُ والدُّنْيا ولا بُدَّ مِنْ قَذَىً[٣] ... يُلِمُّ[٤] بِعَيْنٍ، أَوْ يُكَدِّرُ مَشْرَبا
وَمِنْ قِلَّةِ الإِنْصَافِ أَنَّكَ تبتغي الْـ ... مُهَذَّبَ في الدُّنْيا، ولَسْتَ المُهَذَّبا

جَوَاهِرُ:

قال ابنُ حزمٍ – رحمه الله –:

«لا يَخْلُو مَخْلُوقٌ مِنْ عَيْبٍ، فالسَّعِيدُ مَنْ قَلَّتْ عُيُوبُهُ وَدَقَّتْ».

«الأخلاق والسِّير» (ص١١٤).

---

(١) (صحيح) أخرجه أبو داوُدَ (٤٩٤١)، والتِّرْمذيُّ (١٩٢٤) مِنْ حَديثِ عَبْدِ الله بنِ عَمْرو – رضي الله عنهما – عن النَّبي – صلى الله عليه وسلم –، وصحَّحه الأَلْبانيُّ في «صحيح الجامع» (٣٥٢٢).

(٢) سار الكيمائيُّونَ العَرَبُ في العَصْرِ الوسيط على خُطَا أرسطو، فَهُمْ يُقسِّمونَ الكِبْريتَ إلى أنواعٍ ثلاثة: أَحْمَرَ، وأَبْيَضَ، وأَصْفَرَ.

والأَوَّلُ أَنْدَرُهَا؛ لأَنَّهُ ـ فيما يَزْعُمونَ ـ يُوجَدُ في مَنَاجِمَ مِنْ أَرْضٍ بَعِيدةٍ، تقعُ عِنْدَ مَغْرِبِ الشَّمْسِ، قَريبًا مِنَ المُحيطِ، أو خَلْفَ التُّبَّتِ بوادي النَّمْلِ، وَمِنْ هُنا كانتْ نُدْرَتُهُ، ومَضْرَبُ المَثَلِ بِهِ (د.مكي).

(٣) **القَذَى ـ بِزِنَةِ الفَتَى ـ**: ما يَقَعُ في العَيْنِ وفي الشرابِ مِنْ عُودٍ، وترابٍ، ووَسَخٍ، ونَحْوِ ذلك، الواحدة قَذَاةٌ.

(٤) **يُلِمُّ**: يَنْزِلُ.